بَيْنَ الواقعيّة والكلبيّة

الواقعية مذهب من مذاهب الأدب عند الإفرنج في القرن التاسع عشر بعد الميلاد.

والكلبية[1] مذهب من مذاهب الفلسفة عند الإغريق في القرن الرابع قبله.

فالجهة الجامعة بين المذهبين لا تتمثل في الذهن، لا من الزمن ولا من الموضوع ولا من الغاية. فما الذي حملني على أن أجمع بينهما في هذه الكلمة؟

استمر على كل حال في القراءة فلعلك واجد فيما تقرأ علة هذا الجمع وطبيعة هذه العلاقة.

---

(1) قلت: الفلسفة الكلبية Cynicism مذهب فلسفي أسسه في القرن الرابع قبل الميلاد الفيلسوف أنتيسثينيز، أحد أتباع الفيلسوف اليوناني سقراط. وكانت نقطة البداية لهذا الفيلسوف هي مذهب معلمه، الذي يرى الفضيلة وليس المتعة . الهدف الأساسي للحياة، وأنها تمثل السعادة الحقيقة. ويرى أنتيسثينيز أن الشخص الحكيم هو الذي ينظر باحتقار لكل الرغبات المألوفة في الحياة، ويعيش غير عابئ بالثروة والجاه. وأكّد أن السعادة الدائمة أمر غير ممكن، مادامت للشخص حاجات ورغبات لا يستطيع إشباعها، وهو غير مقيد بأية التزامات، نحو المجتمع أو الدولة أو الأسرة، لأن هذه الأشياء تولِّد رغبات لا يمكن إشباعها.

والتشاؤميون أشبه بالكلبيين بعدم الثقة من وجود الخير في الطبيعة البشرية. ومن الذين كان لهم أثر بارز في فلسفة التشاؤم الفيلسوف الألماني شوبنهاور.

وكان ديوجين واحدًا من أتباع أنتيسثينيز المتحمسين، إذ اتبع الفلسفة الكلبية إلى درجة التطرف. ويقال إنه كان يعيش على أردأ أنواع الخبز، وينام في أحد الأحواض. وقد أنشأ زينون الفلسفة الرواقية، وهو مذهب كلبي ساد في أواخر القرن الرابع وبداية القرن الثالث ق.م.

وتشير بعض المراجع إلى أن الاسم "كلبي" نسبة إلى سينوسارجس، وهو اسم لصالة تريض خارج أثينا، التقى فيه الكلبيون لأول مرة. وتشير المراجع الأخرى إلى أن الاسم مستمدٌ من الكلمة اليونانية κύων (تُنطق: كينِك) التي تعني كلب. وأنها إشارة إلى تجاهلهم للمجتمع والنظافة والعائلة والمال، وكذلك سلوكهم الفظ ونباحهم في وجه المجتمع الفاسد ليتخلى عن حماقاته. وفي الحديث العادي لدى الغربيين، يوصف الشخص الذي يسخر من الفكرة القائلة بوجود الخير في الطبيعة البشرية بأنه كلبي Cynic.

الكلبية كما فهمها (ديوجين)، والواقعية كما فهمها (بلزااك)، والطبيعية كما فهمها (زولا)، تتفق جميعًا في تنظيم حياة الإنسان أو الفنون على مقتضى الطبيعة .. فالكلبيون كانوا يرون الحكمة في رفض الثراء ونبذ الفضول، والعزوف عن اللذة، والزهد في الرفاهية، والتحلل من كل قيد للاجتماع، والخروج على كل نظام للسلوك. وكان زعيمهم يسكن في برميل ويمشي حافيًا ويغترف الماء بيده، ويستتر برداء واحد على اللحم، وينام تحت السماء في أروقة المعابد طول العام. وسُموا بالكلبيين لأنهم كانوا يحملون على عابري السبيل بالتهكم اللاذع فشبهوهم بالكلب العقور.

والواقعيون كانوا يرون البلاغة في تصوير الطبيعة على الواقع المحسوس، وتفسير غوامضها على المعنى الحق، والواقع يكون خيرًا كما يكون شرًا، والمعنى يكون حسنًا كما يكون قبيحًا، ولكنهم يجعلون بالهم إلى دقائق الحياة المبتذلة القبيحة أكثر مما يجعلونه إلى دقائقها المصونة الجميلة، لاعتقادهم أن الشر في الناس هو الأصل، وأن القبح في الطبيعة هو الجوهر.

شق الطربوش الذهبي في فم الإنسان تجد الناب، واخلع القفاز الحريري عن يده تجد المخلب.

فالواقعية تلاحظ الطبيعة وتنقلها نقلاً موضوعيًا محايدًا أمينًا لا تدخل الفنان بشعوره الشخصي فيه، ولا تحفل بإظهار السمات الجمالية به، ولا تقصد إلى استنباط المغزى الخلقي منه.

وللواقعية في معنى من معانيها بذرة في شعر عبد الله بن المعتز، فقد كان يعرف الشر ويبرر هذه المعرفة، ويهوى القبح ويعلل هذا الهوى. فهو في الشر يقول:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
فمن لا يعرف الشر من الناس يقعْ فيه

ويقول في القبح:

قلبي وثاب إلى ذا وذا ليس يرى شيئًا فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهواه

على أن هذه البذرة الضائعة في حقول شعره كانت أضعف من أن تثمر المذهب الواقعي في الأدب العربي، لأنها خاطرة عن خواطر شاعر، لا فكرة من فكر فيلسوف.

والواقعية مجالها القصص والمسرح لا الشعر والقصيدة.

والطبيعيون يشاركون الواقعيون في تصوير الواقع، ولكنهم ينفردون عنهم بطريقة تفسيره، فالواقعي يكتفي بالملاحظة والتسجيل والتعليل، والطبيعي يزيد على ذلك التجربة والوراثة والعلم. وهؤلاء وأولئك يشترطون (الفنية) في المذهب. فلا يخرجون على قواعد اللغة ولا يتمردون على قوانين البلاغة، ولا ينقلون عن الطبيعة نقل المصور الفوتوغرافي يقف عند جهد الآلة ولا يضيف إلى الصورة نورًا من فكره ولا لونًا من خياله.

صحيح أن الواقعية من حيث الفكرة تعتمد على الحقائق والوثائق لا على الفروض والأخيلة، ولكن من الصحيح أيضًا أنها من حيث الصورة لا تقص أجنحة الخيال ولا تطفئ ألوان الحسن. أليس من زعماء الواقعية وأساطينها (فلوبير) صاحب (مدام بوفاري)؟ إن واقعيته في الموضوع لا في الشكل، وإن شعبيته في الفكرة لا في الصورة، وإن أسلوبه آية في البلاغة والدقة، وغاية في الأناقة والجمال.

كتب قصته الجميلة (سلامبو) عن الحضارة الفينيقية في قرطاجنة، فاقتضته واقعيته التي تعتمد على الوثائق أن يقرأ في موضوعها ثلاثة وخمسين كتابًا، وأن يزور أطلال هذه المدينة فيستنطق الآثار، ويستوحي المنازل، ويجمع الأسانيد، ويرصد الأحاسيس، ويصور المناظر. واقتضته (فنيته) التي تعتمد على الألوان أن يصوغها في نظام من البلاغة مونق باللفظة المختارة، مشرق بالعبارة العذبة.

وقَلَّ مثل ذلك في سائر زعماء المذهب كبلزاك وموباسان وزولا.

فإذا فهمنا الواقعية في أدبنا المعاصر على أنها تصوير للناحية الدنيا من حياة الشعب الكادح بما فيها من عناء وشقاء وألم، وما بها من شذوذ وعوج ونقص، لنوقظ الطموح إلى الكمال في شعور العامة، ونحرك النزوع إلى الإصلاح في نفوس الخاصة، كان هذا الفهم حقًا لا جدال فيه.

* * * * *

أما إذا فهمناها على أنها الانطلاق من كل قيد، والتنكر لكل عرف، والاستخفاف بكل قيمة، والنزول بالفن نفسه إلى مستوى إدراك الرجل العامي وذوقه، فنكتب له الأدب بقلم " العرضحالجي "، ونعزف له الموسيقى بزمارة الراعي، ونرسم له الجمل والمحمل بفرشة النقاش، فتلك هي الكلبية لا الواقعية.

أنا أميل بطبعي إلى الواقعية بمعناها الفني الصحيح، ولكني أكره لنفسي ولغيري غلو الغالين فيها بنقل الطبيعة والحقيقة نقلاً آليًا، قبحًا بقبح، وعريًا بعري، وغثاء بغثاء، دون أن يسمحوا للذوق أن يهذب ولا للفن أن يجمل. وأرجو أن تظل الواقعية كسار المذاهب الجدية محدودة بحدود الفن محكومة بأحكامه، وحيثما يكن الفن يكن الجمال.

إن الفن كما أعتقد لا تُطلب منه الحقيقة التي تُطلب من العلم. إنما يطلب منه أن يعرض شبهها مجملاً بألوانه مزينًا بوشيه. وكأنما وُضع بين الفن والنفس ميثاق ترخِّص له الحواس بمقتضاه أن يزوِّر الحقيقة. وهو في مقابل تلك الرخصة يحقق لها السرور واللذة.

فرخصة الشعر أن يتكلم بالوزن والقافية، ويعبر بالمجاز والاستعارة، ويرتفع بالقصيدة أو المسرحية إلى مستوى لا يكون في الحقيقة. ورخصة التصوير أن ينقح الواقع كما يجب، ويغير الوضع كما يشاء، ويرتفع بالصورة أو المثال إلى مستوى لا يوجد في الطبيعة. ورخصة الموسيقى أن تذهب في الإيقاع مذهب الإبداع فتؤلف من اختلاف الأصوات وتنوع النبرات وتعدد الطبقات لحنًا متكاملاً متلائمًا لا يطرق الآذان له مثيل في الواقع. وهذه الرخص التي تموه الحقيقة لابد منها للفن على اختلافه ليبدع ما لم تبدعه الطبيعية من الجمال الذي يبعث الإعجاب ويحدث اللذة.

إن في الفن شيئًا أكثر من التقليد المحض. اسمع آلة تقلد تغريد البلبل كما هو بسذاجته ورتابته فلا تجد فيما تسمع جمالاً يعجب ولا لحنًا يطرب، ولكنك إذا سمعت الآلات الموسيقية تعبر عنه في سيمفونية أعجبت كل الإعجاب وطربت غاية الطرب، لأن الفن قد دخل التقليد في هذه الحال فنقح وصحح وزاد.

لم توجد في الطبيعة سيمفونية (بتهوفن)، ولم توجد في الخليقة فينوس ميديتشي. وإنما الفن وحده هو الذي ألف من النبرات الرخيمة المتفرقة في أصوات الطبيعية هذه السيمفونية، وصاغ من الملامح الجميلة الموزعة على أجسام الخليقة هذا التمثال. وعلى نحو من ذلك تقول في الشاعر الذي ينظم من الأحاسيس الذاتية والمناظر الطبيعية قصيدة، وفي الكاتب الذي يؤلف من الوقائع الفردية والطبائع الإنسانية قصة. ومن الجائز ألا يكون لهذه القصيدة مثال في الكون، ولا لهذه القصة وجود في المجتمع، ولكن العبرة في الفن الحدوث الممكن لا الحدوث المحقق.

ذكرت العلاقة بين الفن والطبيعة لأقول إن الواقعيين الغلاة الذين يتوخون الحقيقة ويتحرون الواقع ويؤثرون الدون وينكرون الذات إنما يكفرون بأثر الفن في رفع النفوس ودفع البؤس وتجميل الحياة.